ملاحظات سريعة حول تفاعلات الحرب وتصدع الرأي العام الإسرائيلي

• بقلم: عوض عبد الفتاح

لم تشكل في يوم من الأيام أخلاقية أو عدالة أية حرب شنتها إسرائيل ضد العرب والفلسطينيين معياراً لموقف المجتمع الإسرائيلي منها، بما فيه الطبقة السياسية والنخب المثقفة. كان على الدوام عامل الربح والخسارة هو الذي يلعب الدور الأساسي في تشكيل الموقف العام. والمقصود بالخسارة؛ الخسارة العسكرية والمادية والسياسية، وعلى مستوى صورة إسرائيل في العالم.

الحرب العدوانية الواسعة التي تشنها إسرائيل على لبنان، منذ ١٣ تموز الماضي، هي الثانية التي تشنها على المنطقة منذ العام ٢٠٠٠، والتي لا تزال في ذروة وحشيتها المتمثلة في العدوان وفرض الحصار على قطاع غزة والعديد من المدن والمخيمات الفلسطينية في الضفة الغربية.

وكانت تمكنت النخبة السياسية الحاكمة وشبه الرسمية من إقناع الإسرائيليين أو تضليلهم بأن سبب شن العدوان على الفلسطينيين هو رفضهم لأسخى عرض قدمته للفلسطينيين، ما يعني أنهم غير معنيين بالسلام، بل يهدفون إلى تدمير دولة اليهود، الأمر الذي اقتضى اعتماد كل وسائل الحرب الفتاكة التي تعتمد ضد جيوش نظامية جرارة. فمنذ حوالي ستة أعوام، لا تغيب الطائرات والسفن الحربية والدبابات والمدفعية الثقيلة عن بحر قطاع غزّة وبرّه وسمائه. لقد نجحت حكومة إيهود براك آنذاك في تمرير روايتها لفشل قمة كامب ديفيد الثانية. وتلقفها ليس الجمهور الإسرائيلي فحسب، بل جرفت معها كل اليسار الصهيوني، باستثناء أصوات ضائعة. وعندما اضطرت حكومة شارون إلى إخلاء قطاع غزة من المستوطنات والجيش، تنفيذاً لخطة تتحايل على المطالب الفلسطينية الأساسية بخصوص الحل، وهي خطة هدفها الجمع بين نزعة التوسع وعقلية الفصل العنصري، وعندما اكتشفت أن هذه الحيلة لم تنطلِ على الفلسطينيين، وأنهم لن يسمحوا لها بأن تَمرّ، عادت حكومة إسرائيل لتجدد الحرب على أهالي غزة وغيرها من مدن الضفة، بأشكال أكثر وحشية.

قد يقول قائل إن السلوك الفلسطيني؛ سواء من "حماس" أم من السلطة، وغياب الإستراتيجية الموحدة، واعتماد أساليب نضال غير معقولة، كلها تشجع المجتمع الإسرائيلي على التماسك، وتحول دون بروز معارضة جدية وواسعة للحكومة الإسرائيلية. قد يكون هذا صحيحاً جزئياً، ومن الصحيح أن حركة التحرر الوطني ينبغي أن يكون لها برنامج سياسي وإستراتيجية كفاحية تستطيع أن تضعف الخصم من الداخل، وتُجند أوسع جبهة عالمية إلى جانب نضالها. والحقيقة التي يجب أن يتذكرها الجميع هي أن حكومة إسرائيل، بيمينها ويسارها، لن تغيّر من موقفها فيما لو جاء طرف فلسطيني وطرح مطالب الحدّ الأدنى، بل أقل من ذلك، إذا لم تكن هناك مقاومة، ولكن مقاومة تقوم على برنامج سياسي موحد وإستراتيجية نضال موحدة، تأخذ في الاعتبار ميزان القوى ومعطيات الوضع الدولي الراهن.

في لبنان تعود القصة على نفسها

لا يزال المجتمع الإسرائيلي، حتى اللحظة، ملتفاً بغالبيته حول حكومته في حربها العدوانية ضد المقاومة اللبنانية. لقد استطاعت الحكومة الحالية أن تظهر المقاومة اللبنانية كتهديد لوجود إسرائيل، مع أن خطاب حزب الله المعلن، وعلى لسان أمينه العام حسن نصر الله، لم يتحدث سوى عن مزارع شبعا، وعن تحرير الأسرى، وانتهاك أجواء لبنان المستمر، وعن وقوفه إلى جانب نضال الفلسطينيين من أجل إنهاء الاحتلال لأرضهم وإقامة دولتهم المستقلة. فمثلما حشّدت حكومة بيغن – شارون العام ١٩٨٢ المجتمع الإسرائيلي لشنّ حرب شاملة على كل لبنان بسبب مقتل السفير الإسرائيلي في بريطانيا على يد فصيل فلسطيني هامشي، كررت قبل شن الحرب الحالية على لبنان الرواية نفسها والتبرير نفسه، وجعلت من قيام المقاومة اللبنانية باستهداف هدف عسكري إسرائيلي أدى إلى قتل ثمانية جنود وأسر اثنين آخرين، ذريعة لشن هذا العدوان الوحشي الواسع. وأظهرت المسألة وكأن الدخول في هذه الحرب مسألة حياة أو موت بالنسبة لإسرائيل.

ليس مؤكداً أن المجتمع الإسرائيلي يرى في هذه الحرب مسألة حياة أو موت كما يعرضها السياسيون، إنما هي بالنسبة للذين يقطنون في الشمال مسألة الشعور بالأمان، أما بالنسبة لبقية المجتمع الإسرائيلي، وبالتحديد النخب السياسية والعسكرية، فهي مسألة تمسّ هيبة إسرائيل وغطرستها، باعتبارها الدولة أو الجيش الذي لا يقهر. وهي أيضاً، بالنسبة لبعض المسؤولين، مسألة تتعلق بمستقبلهم الشخصي.

إن الحملة التعبوية القومية شديدة الغلو، واعتماد كل المفردات المؤثرة، مثل "حرب وجود"، و"حرب على البيت"، وغيرها من المفردات التي تستثير الخوف والحمية للدفاع عن "الوطن" التي تعتمدها الحكومة ووسائل الإعلام الإسرائيلية التي تجندت بالكامل في المعركة على حساب المهنية، جعلت من كل من لا يلتحق بصفوف القبيلة الإسرائيلية منبوذاً، بل خائناً.

هكذا في كل حرب، تبدأ بالإجماع ثم يبدأ التصدع، بعد أن يتكشف عجز الجيش عن تحقيق نصر سريع على شعب أو حركة مقاومة تدافع عن أرضها بإرادة وعزيمة تفوق إرادة المحتل والمعتدي.

وإذا كانت مظاهر التصدع ومظاهر الفشل في تحقيق أهداف العدوان على لبنان قد بدأت تظهر، بعد مجزرة قانا الثانية، فإن عملية التصدع الحقيقية ستظهر وستتسع بفعل فشل الجيش والحكومة في تحقيق أهداف لم يكن بالأصل ممكناً تحقيقها، نظراً لقوة تنظيم المقاومة، ناهيك عن عدم وجود سبب معقول لشن عدوان شامل وواسع على بلد وتدميره.

إن الأيام القادمة ستشهد تجليات أوسع لمعارضة الحرب حتى من الذين أيدوا الردّ على عملية حزب الله، ولكن ليس بالحجم الذي اتسم به. إن من قضوا ثلاثة أسابيع في الملاجئ في شمال البلاد (حوالي مليون وأكثر) كانوا ينتظرون أن تكون النتيجة سحق حزب الله والتخلص كلياً، وإلى أمد طويل، من تهديد الصواريخ.

كما أن هؤلاء سيكتشفون أيضاً، كما جاء في مقال للصحافي دانييل بن سيمون (هآرتس ٢٠٠٦/٧/٣١) تحت عنوان "حرب طبقية"، أن لا هذا الهدف تحقق، ولا الوضع الاقتصادي تحسّن بل ازداد تدهوراً. وقد أشار في مقالته إلى الفوارق الطبقية التي كشفتها هذه الحرب في المجتمع الإسرائيلي. وقال، إن من بقي في الملاجئ في الشمال هم من لم يتمكنوا اقتصادياً من الهروب إلى وسط البلاد وجنوبها والنوم في الفنادق أو لدى الأقارب.

وأضاف "في هذا الإطار، إن هدف الحرب اللبنانية الثانية ليس تحسين الوضع الأمني فقط، ولكن أيضاً من أجل تحسين الوضع الاقتصادي. إن نتائج هاتين الحملتين ستسد مصير مهندسيها، وإن الخطة الرئيسية لليوم التالي للحرب ستقرر المصير السياسي لإيهود أولمرت، الذي أصبح رئيساً للوزراء بسهولة يصعب تحملها، والذي أقدم على مقامرة لم يتجرأ عليها سابقوه".

وأنهى دانييل بن سيمون مقالته، قائلاً: هناك تناقص في إيمان الجمهور في الحرب، وإن المزاج السائد بين مواطني الشمال الذين يقبعون في الملاجئ يشير إلى أن صبرهم بدأ ينفد.

ومن مظاهر الاعتراض أيضاً، قيام ٦٠ كاتباً وأديباً شاباً بتوقيع عريضة يطالبون فيها بوقف الحرب، وجاء في العريضة "لا يوجد شك بحق إسرائيل بالدفاع عن نفسها في وجه اعتداء يمس بسيادتها ومواطنيها. ولكن استعمال قوة غير متناسبة، خصوصاً ضد المدنيين، ليس دليلاً على العظمة وقوة الردع. بالعكس، إنها تعبير عن الهستيريا وفقدان القدرة على التمييز بين تهديد عيني وبين خطر وجودي".

ومما يؤكد نظرية أن المجتمع الإسرائيلي لا يتحرك إلا بعد الخسارة، جاء في العريضة أنهم اعتقدوا في الأيام الأولى أن الحرب ستكون قصيرة، وأنه الآن "تظهر صور تذكر بالأيام المظلمة لعملية "سلامة الجليل" التي حظيت في بدايتها بإجماع واسع" .. هذا ما بدأ يكتبه بعض الإسرائيليين.

إن القيادة السياسية العسكرية الإسرائيلية تعيش حالة إحباط وشعور بالفشل، على الرغم من الدمار الهائل الذي ألحقته بشعب لبنان والمجازر المروعة التي ارتكبتها على أرض هذا البلد العربي المقاوم، وهي تحاول فيما تبقى من أيام قبل التوصل إلى وقف إطلاق النار، أن تحقق بعض الإنجازات العسكرية، مثل هدم تحصينات حزب الله بعمق كيلومترات على طول الحدود اللبنانية، بعد أن كان الهدف في بداية الحرب، سحق حزب الله، وخلق فتنة داخلية، واستعادة قوة الردع الإسرائيلية لتكون درساً للمقاومة اللبنانية والفلسطينية وسوريا، ولكل العرب. ولكن معطيات واقع المعركة التي دارت على أرض لبنان، أفرزت نتائج عكسية وسيكون لهذه النتائج (صمود المقاومة وفشل قوة الردع الإسرائيلية) آثار وخيمة بالنسبة للإستراتيجية الإسرائيلية العسكرية اتجاه العرب والفلسطينيين، وهذا ما يؤرق النخبة السياسية – العسكرية الإسرائيلية، التي ستحاول أن تنتزع بعض المكاسب؛ سواء عبر الضغط العسكري أم عبر المفاوضات السياسية. وإلا، فإن صورة من شنوا هذه الحرب الإجرامية ستهتز أمام مجتمعهم.

تظاهرات.. وصواريخ في إسرائيل. (أ.ف.ب)